والهويدر فقد فاض فيضاناً لم يحدث له مثيل الا منذ نيف وخمسين سنة. وقد غرقت بعقوبا والحديثة ونحوهما من القرى والضيع المجاورة لهما. ولما كان السيل قد فاجأ الناس على حين غرة منهم فقد اغرق من اهل البادية عدداً لا يحصى وكذلك قل عن الحيوانات التي هي من توابع معيشة البدو دون الحضر

ومما كان من قبيل ضغث على أبالة ان الفرات ايضاً ثار ثائره غيرة وحسداً فاتلف شيئاً لا يقدر من زروع الحلة والديوانية ودغارة والسماوة وغيرها. فكانت البلية اعظم البلايا. واجتماع الانهر الثلاثة وتحالفها وتعاقدها على اهلاك كل ما كان حياً في سقيها من الامور التي لم تحدث بعد في تاريخ هذه النواحي. فلم تبق سدة الا وانكسرت او انفتقت واخذ الفرات يلقي مياهه على دجلة واراضيه لانه اعلى منه ارضاً. وكذلك فاضت الترعة المعروفة بالرستمية فجاءت مياهها واغرقت بستان النقيب العظيمة مع الوزيرية والمشيرية وغيرها من الاراضين الواسعة الاطراف. ثم جاءت المياه الى العلوية ومنها الى الاعظمية ثم الى مياه دجلة فاختلطت بعضها ببعض فجل الخطب وعظم الرزء والناس تطلب الرحمة من الله والعون من جوده وكرمه

واليوم ٦ أيار أخذت مياه دجلة بالتناقص. واما مياه ديالة والفرات والرستمية فواقفة كأنها تنتظر اتمام الخراب وجر ذيل الويل على كل ما فيه بعد ادنى بناء او عمارة. فنطلب من المولى ان يشفق بعباده ويبعد عنهم غضبه انه الرحيم الكريم

الى هنا نوقف جري طرف القلم. زائدين على ما تقدم: اننا لم نذكر من الغرق الا ما عثرنا عليه ونحن على يقين بان دجلة قد اغرق هذه البلاد اكثر مما ذكرناه. الا اننا لم نحصل على نص تاريخي يصرح بذلك وكثيراً ما يسهو المؤرخون عن تدوين مثل هذه الامور كأنها غير مهمة في نظرهم. او لغايات اخرى نجهلها ولا يعلمها الا الله

الآثار الخطية لتاريخ الكنائس الشرقية

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

هو الكتاب بل المعدن الثمين الذي استخرجه من دفائن المكاتب والسجلات الدولية حضرة الاب انطون رباط اليسوعي وها هوذا قد انجز مجلده الاول في ثلاثة اقسام لا تقل صفحاته عن ٦٦٨ من قطع الثمن

ومن قلّب باخصّ نظر صفحات هذا السفر الجليل يأخذهُ الاندهاش ممّا اودعهُ جامعهُ الفاضل من الآثار التي كان يتوق الى معرفتها أولو التفتيش وارباب البحث. فانهُ والحقُّ يقال لم يدّخر وسعاً في الحصول على هذه الاوراق الخطيرة المصونة بكل احتراس في ضمن القماطير السرّية التي لا يتّصل الى مطالعتها غير خواصّ الافراد فنهبا ما تمكّن من استنساخهِ وناهيك بما يقتضي ذلك من التعب الشاقّ والسأم المملّ. ومنها ما حصل على رسومهِ الفوتغرافيّة فلقي من مراجعتهِ عرق القربة. ومعظم هذه الآثار مكتوبة بخطوط دقيقة قليلة الايضاح كثيرة الاغلاط في لغات غربيّة وشرقيّة مختلفة وفيها من اللهجات القديمة ما لا يحلّ رموزهُ الّا من عرف اصطلاحات وعوائد تلك الازمنة الخالية. هذا فضلاً عمّا قاساهُ من العناء في الاسفار وتحمّلهُ من النفقات الطائلة لبلوغ اربهِ. جازاهُ الله خيرًا

امّا محتويات هذه الآثار فانّها عبارة عن مجموع ثلاثمائة كتابة بنيّف تشتمل على كلّ اصناف المكاتبات منها رسالات من وإلى الاحبار الرومانيين والملوك العظماء ورؤساء الرهبانيّات. ومنها عرائض وسندات وصكوك وتقارير شتّى. ومنها اخبار رحلٍ وتدوين اعمال سُفراء. ومنها وصف حوادث جليلة وبيان امور اثيرة كمجامع وبراءات سلطانيّة وغير ذلك ممّا لا تخفى فائدتهُ على احدٍ. وهذه الآثار تمتدُّ من اواسط القرن السادس عشر الى اواسط القرن المنصرم اي نحو ثلثمائة سنة كتبها بطاركة الطوائف الشرقيّة واحبارها الاجلّاء وقناصل الدول ورؤساء الرهبانيّات والمرسلون وغيرهم كثيرون فيرى القارئ نفسهُ في حديقة غنّاء واسعة الخيرات وافرة الغلّات لا يجني ثمرًا حتى يصيب ما هو اطيبُ منهُ وألذّ طعمًا. يتحوّل مع الكتّاب من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر فلا يعاني السأم ولا يذوق الملل وهو ينالُ من كلّ حسن طرفهُ على وفق القول:

لن يصلح النفسَ ان كانت مدبّرة الّا انتقُل من حال الى حالِ

ولم يكتفِ حضرة متولي نشر هذا الكتاب بادراج تلك المآثر بل احبَّ ايضاً زيادةً في الفائدة ان يذيّلها بعدّة ملحوظات تهدي القارئ الى فكّ مشاكل عديدة ودفع الشبهات عن امور مبهمة. كما انهُ احرز لهُ شكرًا آخر بما اضاف اليهِ من الفهارس الحسنة التي تقرّب المطلوب لطالبهِ وتجعل الثمر طوع راغبهِ

وها نحن نبيّن في الاسطر التالية بعض ما يُستفاد من هذا التأليف وليس لدينا منهُ كما سبق القول الّا المجلّد الاوّل ويليهِ عدّة مجلّدات ليست دونهُ فائدة تستوفي كثيرًا من الابحاث التي أكتفي الآن حضرة الجامع بفتح ابوابها فمن الله نطلب ان يوفقهُ على انجازها قريبًا

انَّ الفوائد التي يمكن اجتناؤها من هذا المجموع النفيس على صنفين منها دينيَّة ومنها علميَّة نفرد لكل قسم منهما بابًا

١

الغاية الاولى من نشر هذه الآثار خدمة الدين كما يظهر من عنوان الكتاب ويلوح من كل صفحة من صفحاتهِ. ولو شئنا لامكننّا ان ندعو هذا التأليف بتاريخ الكنيسة الكاثوليكيَّة في الشرق مدَّة القرون الاخيرة فترى ما للاحبار الرومانيين من الهمَّة البعيدة في دعوة الطوائف الشرقيَّة الى الوحدة ومساعيهم الطيّبة في مساعدة البائسين وهداية الضالّين وارشاد الجهّال لا تأخذهم في ذلك لومة لائم ولا يثبّط عنايتهم شيء من المشاقّ او النفقات فيوفدون الوفود الى الوارنة (ص ١٤٠—١٧٤) والى السريان (٩٤—١٢٥) والى الروم الملكيين (١٨٣ و٥٤٥) والى الاقباط (١٩٤—٣١٥) ويكاتبون بطاركتهم وزعماءهم. وفي كثير من هذه الآثار ما يبيّن صريحًا انَّ آمالهم لم تذهب سدًى فانَّ في هذا المجموع عدّة رسالات تشهد باكرام الكرسيّ الرسولي واعتراف الشرقيين برئاسة عظيم الاحبار كما ترى في رسالة البطريرك ميخائيل الرزي الى البابا غريغوريوس الثالث عشر (ص ١٢٠) وفي كتاب روم طرابلس اليهِ (١٨٣) وهناك ايضًا بالتفصيل اخبار النهضة الدينيَّة التي جرت في سوريَّة وخصوصًا في حلب في القرنين السابع عشر والثامن عشر فكانت نتيجتها نهضة اربع طوائف كاثوليكيَّة محتة خاضعة الخضوع التامّ لرأس الكنيسة المنظور اعني الكلدان ثم السريان ثم الارمن ثم الروم الكاثوليك الملكيين فصار لكل طائفة نظامها الديني وسلسلة بطاركتها واساقفتها مع حفظ طقوسها القديمة. ولم يتمّ ذلك الّا بعد المعاكسات والاضطهادات وصنوف العذابات التي انتهت اخيرًا بفوز تلك الطوائف بالسلام الوفيّ في ظلّ الاريكة السلطانيَّة المعظَّمة. وما يزيد في شأن هذه الاخبار انَّها سُطِّرت في يوم حدوثها بيد كتبة عيانيين مختلفين تتدفَّق الحقيقة من سطورهم مجرَّدةً عن كلّ زخرف الكلام

وتزويق التعبير فتظهر تلك الطوائف الجليلة نامية شبه حبّة الخردل تبدو اوّلاً ضئيلة زهيدة ثم تضحي كالشجرة الباسقة الافنان الوارفة الاغصان وقد جرى ذلك للسريان الكاثوليك باقامة البطريرك اندراوس اخيجان (١٦٦٧—١٦٧٨) وخلفه اغناطيوس بطرس (١٦٧٨—١٧٠١) ثم للروم الكاثوليك بتنصيب البطريرك كيرلّس تاناس. ثم للازمن بتوجيه الرتبة البطريركيّة لابراهيم ارزيشيان (١٧٤٢)

وان انتقلنا الى كل طائفة بمفردها وجدنا في هذه الآثار تفاصيل عديدة تفيد تاريخها وشؤونها المليّة مرويّة بقلم المعاصرين كاخبار الوفد اليسوعي الى الموارنة اوّلاً سنة (١٥٧٨—١٥٨٠) وثانياً سنة (١٥٩٥) وتقارير مجمع قنّوبين المعقود سنة (١٥٨٠) ووصف رسالات متواترة بين الموارنة في لبنان وسواحل الشام وحلب وقبرس وجزائر اليونان وجبل اثوس في قرن السابع عشر والثامن عشر. ومثلها سفارة اليسوعيين الى بطريرك الاقباط من السنة ١٥٦١ الى ١٥٦٣ وكتابات متعدّدة في احوال الروم والارمن والسريان والكلدان والحبشة ونصارى ملبار تجدها متفرّقة في هذا المجموع تصف احسن وصف امور هذه الطوائف واحوالها الدينيّة والمدنيّة

ويلحق بذكر الطوائف الشرقيّة اخبار اعمال المرسلين في انحاء الشرق. فانّ قسماً كبيراً من هذا الكتاب يتضمّن وصف مآثرهم من تبشير وانذار وتعليم وتشكيل جمعيّات تقويّة وانشاء اخويّات وتصنيف تآليف دينيّة وعلميّة وخدمة المرضى والسجناء وتهذيب الاحداث الى غير ذلك ممّا يشهد ما للجماعات الرهبانيّة من الايادي البيضاء في جهات الشرق. وليست هذه الكتابات للمرسلين وحدهم بحيث يمكن ان تُنسب لهم الاغراض او المبالغة في اقوالهم بل منها ما هو لرؤساء الطوائف وارباب الدين ولسفراء وقناصل ورحّالين يروون بالنزاهة ما يرون ويسمعون فيطنبون في اعمال المرسلين الفرنسيين والكبوشيين والكرملتان واليسوعيين وان وجدوا في سيرتهم مغمزاً اشاروا اليه بلا تقيّة ولا خوف لظنّهم غالباً انّ هذه الكتابات تبقى سريّة لا يطّلع عليها سوى اصحاب الامر

وهنا كنّا وددنا لو سمح لنا المكان بتلخيص بعض هذه المآثر الجليلة التي انعشت في قلوب الشرقيين روح الايمان بل افاضت فيهم حياةً جديدةً بعد خمود الهمم وارتخاء العزائم وانتشار الاضاليل والبدع والجهل المركّب حتى اضحت النصارى في حالٍ يُرثى لها

منذ مئين من السنين. فلما جاء هؤلاء الدعاة والفَعَلة النشطاء في كرم ربّ البيت لم يلبث الزرع أن أتى بالثلثين والستين والمئة وليس ذلك في مكان او قطر واحد بل في انحاء الشام ومصر والجزيرة والعراق والعجم وبرّ الاناضول والاستانة العلية وقبرس . وكذلك يطول بنا الكلام لو عدّدنا مناقب بعض المرسلين فنحيل القرّاء الى مراجعة تراجم بعضهم في هذا التأليف كالاب برونو الكرملتاني (٤٣٥) والاب سلوستروس الكبوجي والآباء اليسوعيين حبيب شازو (٨٧) وجان امبو (٤٢٢) وهيرونيم كوارو (٦٦) والاب يوحنا اليانو (١٩٥) وغيرهم. وهناك ايضاً تراجم أخرى مهمّة كترجمة رجل الله ناوفيطوس نصري اسقف صيدنايا (٥٩٢) وسيَر بعض افاضل العلمانيين (٧٣—٧٧)

وأولى من هذه التراجم وصف شهامة بعض الشهداء وثباتهم في الدين حتى الممات كخبر استشهاد احد الاقباط في برجه (١٧) واستشهاد الاب ابرهيم جرجي الماروني اليسوعيّ في مصوّع (١٧٤) ودير غرميداس الارمني في القسطنطينيّة (١٢٦) وبعض الاعجام في اصفهان (٤٤٨) وداود الرومي الملكي في حلب (٤٥٧) وكلّ هذه الاخبار لا تكاد تجد لها ذكرًا في اوسع التواريخ المسيحيّة

٢

أجل أنّ هذا المجموع لفريدٌ في محتوياته وآثاره الدينيّة الجليلة التي من شأنها ان توقف القارئ على نفوذ الكنيسة الكاثوليكيّة في بلاد الشرق وانتشارها في جميع البلاد الخاضعة لسيطرة سلاطين آل عثمان أيّد الله شوكتهم. لكنّ هذه الكتابات ليست محصورة في الدين بل يجتنى منها فوائد جمّة يحتاج اليها كلّ من يحبّ الاطلاع على احوال هذه البلاد في القرون الاخيرة. وها نحن نلخّص بعض هذه الفوائد بياناً لخطرها

١ (التاريخ) يستفيد المؤرخ من هذه الآثار معلوماتٍ لا يجدها في الكتب الموسّعة ليس فقط من حيث التاريخ الدينيّ لكن من حيث المدنيّ ايضاً فمن ذلك انشاء السفارات الدوليّة في الاستانة العليّة والقنصليّات في حواضر البلاد العثمانيّة كدمشق وحلب وصيداء وقبرس والقدس الشريف خاصّةً مع بيان عدّة امور منوطة بهذه القنصليات وتعريف اصحابها. وكان التقدّم في ذلك لفرنسة خصوصاً ثم للبنادقة ثم للانكليز ثم

للهولنديين ثم للالمان فيسعى الموظفون في تنفيذ صوالح دولهم والتقرب الى السلاطين العظام بحسن سياستهم . وفي رسائلهم ما يُشعر بالوسائل التي يتوسلون بها للفوز بالمرام وربما تنازعتهم العوامل المتباينة من خوف ورجاء وشدة ورخاء مع التفاني في خدمة مرؤوسيهم . وكذلك يتكرر في هذه المراسلات ذكر بعض الولاة والامراء وكبار الرجال ممن لعبوا في حوادث تلك الاعصار ادوارًا مهمة كفخر الدين المعني واحمد باشا الجزار وابي ذهب وظاهر عُمَر وغيرهم من المشاهير الذين شاع اسمهم في التاريخ

٢ (الجغرافية) في هذه التقارير والمكاتبات افادات لا تُحصى عن البلاد الشرقية . والمرسلون في تسطيرها يجارون غيرهم من الكتبة وارباب الرحل لحرصهم على تعريف الاقطار ووصفها بدقة فتارةً يعرّفون حدود البلاد وتارةً يعدّدون ملحقاتها وحيناً يصفون عجائبها من قصور وابنية وبيع ومناظر طبيعية واعمال صناعية او يتسعون في ذكر زراعتها وغلاتها ومداخيلها . ولم يكتفوا بتعريف البلاد عموماً بل لم يكادوا يضربون الصفح عن مدينة من مدن الدولة العلية كدمشق (ص ٦٤) وحلب (٤١ و٣٨٣) وبيروت وطرابلس (٤٣) وصيدا (٤٤) وكذلك مصر ومدنها (٩—٢٩ الخ) وقبرس (٣٩٣) وجبل اتوس (٤١٣) وجهات العراق والحبش وارخبيل اليونان والمنول والنحاء العجم بحيث يمكن اعتبار هذا المجموع كسياحة عظيمة في اقطار الشرق مع بيان احوالها ووصف خواصها

٣ (الآداب والعلوم) انَّ المرسلين لم يفصلوا قط العلم عن الدين لانهُ ثبت لديهم انَّ العلم اذا كان مبنيًا على المبادئ الصادقة يؤيد الدين فضلًا عن انهُ لا يضرُّ به البتة . ويظهر من مجموع هذه المكاتبات انَّ دُعاة الدين حيثما حلُّوا انشأوا المدارس للاحداث وكثيرًا ما ورد في رسائلهم ذكر المدارس التي أداروها في حلب (ص ٣٧٩) ودمشق (٥١) وصيدا (٤٠٥) وبغداد (٥١٣) ومصر (٥١٩) . ومنهم من كان يخصُّ نفسهُ لهذا الشغل الشاغل فيهذّبون الاولاد طول أيامهم كالاب كوارو والاب شيزو . وكانوا يسعون ايضًا بارسال البعض من نجباء التلامذة الى رومية وباريس ليعلّموهم اللغات ويتقنوا تربيتهم حتى اذا عادوا الى بلادهم خدموا وطنهم خدمة صادقة (٥٧١) وفي هذا المجموع فصلٌ واسع في ذكر هؤلاء الاحداث

ومما يدلُّ ايضًا على همة المرسلين وسعيهم في تعزيز العلوم ما ورد ذكرهُ في عدة

رسائل مدوَّنة في هذا الكتاب اعني التآليف المتعدّدة التي صنَّفوها في العربيَّة والتركيَّة والفارسيَّة منها دينيَّة ومنها علميَّة لم يُطبع منها الَّا النزر القليل

٤ (علم الاخلاق والعادات) هو علم مستحدث يطرقهُ اليوم الكتبة العصريُّون ولم يَسْهُ عنهُ المرسلون. ففي الآثار التي نشرها حضرة الاب رئاط اوصاف عديدة دوَّنها أولئك الكتبة في تعريف اخلاق الشعوب الشرقيَّة وما ألفوهُ من العادات في اكلهم وشربهم ولبسهم وحياتهم الاهليَّة وخرافاتهم وتصرُّفهم مع مواطنيهم ومع الاجانب وكلُّ ذلك على طريقة شائقة تجمع بين اللذَّة والفائدة

وفيها ايضاً عادات ومعتقدات بدعٍ شائعة في الشام والجزيرة كاليزيديَّة (٥١٢) والشمسيَّة والبانيان (٥٦—٥٧) واليهود (٦١ و٤٦٥) وبعض الجمعيَّات السريَّة (١٣٤). ولا يخفى ما في هذه الاوصاف من الفوائد لمعرفة الاقاليم وللاستدلال على سكَّانها وملَلهم ونحَلهم

٥ (التجارة والصناعة) وممَّا يُجتنى ايضاً من هذه الكتابات معلومات شتى في تجارة الشرق وصنائع اهلها وفنونهم. وكان المرسلون لا يألون من تدوين ملحوظاتهم في ذلك ليس طمعاً بالمال لانفسهم وقد زهدوا بالدنيا بل لافادة مواطنيهم في اوربَّة ترويجاً للتجارة الدوليَّة نخصُّ بالذكر رسالةً وجَّهها الكبوشيُّون (٥٠٦—٥١٦) الى وزير فرنسا كولبار سنة ١٦٧٠ يصفون فيها التجارة الشرقيَّة وصادرات الشرق الى الغرب والواردات من الغرب الى الشرق

هذا نظر خفيف في بعض ما يُستفاد من هذه الآثار القديمة التي كان بودّنا انْ ننقل عنها نتفاً مستطرفة ليقف القرَّاء على شيء من مضامين ذلك السفر الجليل لكنَّ ضيق المقام يقضي بالاجتزاء بالقليل. وفي الختام نكرِّر آيات الشكر لحضرة الساعي بنشر هذه الدفائن متمنِّين لصدور الاجزاء التالية باقرب وقت